

دور القيروان الديني والسياسي والفقهية من مرحلة التأسيس إلى انقراض الدولة الأغلبية

د. هشام قريسة

المعهد الأعلى للحضارة الإسلامية
جامعة الزيتونة (تونس)

يتلخص هذا الدور في ثلاث مراحل متعاقبة ومختلفة تتوضح كالتالي :

المرحلة الأولى : ويمكن تسميتها بمرحلة "القادة الفاتحين" وتبدأ من تأسيس القيروان سنة (50 هـ/ 670 م) إلى انتهاء ولاية موسى بن نصير سنة (96 هـ / 714 م) للهجرة، وللقيروان في هذه المرحلة دور ديني يتمثل في أنها قاعدة الإسلام الأولى في إفريقية وبلاد المغرب ومركز الإشعاع الديني زمن الفتح.

المرحلة الثانية : ويمكن تسميتها بمرحلة "القادة السياسيين" أو مرحلة الولاة، وتبدأ من انتهاء عهد موسى بن نصير [سنة 96 هـ / 714 م] إلى قيام الدولة الأغلبية سنة [184 هـ / 800 م]، وتمثل هذه المرحلة تحول الصراع في إفريقية من صراع ديني عقدي إلى صراع سياسي بين السنة والخوارج في غالب الأحيان، وفي أحيان أخرى بين رموز السلطة الإسلامية من الأمويين والعباسيين وبين المعارضين وإن كان هناك تداخل بين الصراعين وكان للقيروان الدور المهم في تمثيل العقيدة السنية.

المرحلة الثالثة : مرحلة الاستقلال السياسي عن السلطة المركزية في بغداد، بقيام الإمارة الأغلبية، وتمثل مرحلة التوحّد المذهبيّ على النهج الفقهي المالكي والذي استمرت آثاره بعد ذلك في كامل تاريخ إفريقية والمغرب، ويمكن اعتبار العهد الأغلبي [184 هـ / 800 م إلى 296 هـ / 908م] التأسيس الثابت لمدرسة "المدينة" في المغرب الإسلامي عقيدة، وسنة، وقراءة وفقها، وتأتي هذه المرحلة من تاريخ إفريقية كنجاح للرؤية الإسلامية المعتدلة والمتمثلة في العقيدة السنية وانحصار مذاهب الخوارج وقلة تأثيرهم في الداخلين في الإسلام. هذه المراحل المتعاقبة التي أفرزت في الأخير نهجا إسلاميا قويا كان لا بد من تضافر الجهود الخيرة وتقديم التضحيات العظيمة لتحقيق ما أصبحت تنعم به إفريقية بعد ذلك من فكر سويّ مؤسّس على الاعتدال نابذ للمغالاة ومن مدنيّة راقية وعمران.

وقبل بسط الحديث عن هذه المراحل الثلاث وما كان للقيروان من دور فيها، لا بد من توطئة تبين حيثيات الفتح في إفريقية قبل تأسيس القيروان، هذه حيثيات التي ساعدت على إعطاء القيروان هذا الدور المتنوع الذي سيأتي بيانه.

حيثيات الفتح قبل تأسيس القيروان : كانت بدايات التفكير في فتح إفريقية، بعد أن أتمّ عمرو بن العاص فتح مصر، فقد اتجه غربا لتوطيد الفتح ولقطع إمدادات الروم الآتية من الثغور البيزنطية المقامة غرب الإسكندرية "كسرت" و"برقة" و"طرابلس" وغيرها. فلما تم له فتحها على يد عقبة بن نافع الفهري سنة (22 هـ / 642 م) بعث إلى الخليفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يستأذنه في فتح إفريقية ويصف حالها وحكامها ووفرة سكّانها ووسائل دفاعهم ومقدار استعدادهم وما يتصفون به من القوة وركوب الخيل⁽¹⁾ ومقتضى هذا الكلام يستلزم مدّة بالرجال والمال والعتاد، فكتب إليه عمر ينهيه عنها ويقول : "ماهي بإفريقية ولكنها مفرقة غادرة، مغدور بها" وذلك أنّ أهلها كانوا يؤدون إلى ملك الروم شيئا، فكانوا يغدرون به كثيرا، وكان ملك الأندلس صالحهم ثمّ غدر بهم⁽²⁾ ويضيف ابن عبد الحكم بأن عمر ذكر في كتابه أنّه

(1) ابن عذاري، البيان المغرب : تح كولان. وبرقّسال، الدار العربية للكتاب - بيروت ط 3 - 1983. 8 / 1.

(2) البلاذري : فتوح البلدان : تح رضوان محمد رضوان - المكتبة التجارية الكبرى بمصر - 1959، ص 227.

سوف لا يسمح بغزوها مدة حياته فقال : "لا يغزوها أحد ما بقيت"⁽¹⁾ فقفل عمرو راجعا إلى مصر.

ويذكر المؤرخون أسبابا ثلاثة دفعت عمر إلى عدم غزوها :

1 - عدم رغبته في التوسع في الفتح غربا بعد أن طالت المسافة وبعد خط القتال.

2 - ما عرف عن أهل إفريقية من الغدر.

3 - نقض الروم عهد عمرو بن العاص في مصر⁽²⁾.

لأجل هذه العوامل توقف الفتح عند حدود إفريقية، وبقي عقبة بن نافع "ببرقة" وما جاورها يدعو إلى الإسلام حيث تمكن من كسب كثير من سكان البلاد من قبائل "لواتة" و"نفوسة" و"هواره" و"زواغة" وأصبحت "برقة" - بفضل ذلك - قاعدة لجيش المسلمين في غرب مصر⁽³⁾ ورغم أن عمرو بن العاص عاد إلى مصر، فإنه لم يصرف نظره عن المغرب بل كان يستطلع أخبارها ويبعث السرايا للوقوف على أحوال تلك البلاد ومواكبة أوضاعها، فلما تولى عثمان بن عفان - رضي الله عنه - وجّه عبد الله بن سعد بن أبي سرح القرشي لفتح إفريقية وندب الناس لغزوها بعد المشورة منه في ذلك⁽⁴⁾ سنة سبع وعشرين ويصور أبو العرب التميمي سرعة استجابة كثير من الصحابة لنداء عثمان بأن عبد الله خرج إلى إفريقية في جيش أكثرهم أصحاب رسول الله (ﷺ) واستخلف على مصر عقبة بن عامر الجهني⁽⁵⁾ وفي طريقه إلى إفريقية انضم إليه عقبة بن نافع فيمن معه من المسلمين "ببرقة" ثم ساروا إلى "طرابلس" فوجدوا مقاومة خفيفة فلما جاوزوها ودخلوا إفريقية اتجهوا غربا فابتعدوا عن السواحل الشرقية لوجود الحاميات الرومية بها، والتقوا بجرجير - صاحب إفريقية آنذاك - وقد وصف المؤرخون سعة ملكه

(1) ابن عبد الحكم : فتوح مصر : نشر شارل توري - لايدن 1920م، ص 172.

(2) زيتون، محمد، القيروان و دورها في الحضارة الإسلامية، دار المنار - القاهرة - ط1 - 1408هـ / 1988 م ص 23.

(3) السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، الدار القومية للطباعة والنشر - 1966، 2 / 152.

(4) ابن عبد الحكم : 183، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، بولاق 1274 هـ / ط - بيروت 1965 - 1967، 3 / 42.

(5) أبو العرب، طبقات علماء إفريقية، تح علي الشابي ونعيم اليافي، الدار التونسية للنشر ط 2 - 1985 . ص70.

بأنه يملك ما بين "طرابلس" إلى "طنجة"⁽¹⁾ وكانت دار ملكه "سبيطلة" فقتل في تلك المعركة، وقبل أتباعه الصلح، وتعتبر هذه الغزوة بادرة الاستفتاح في غزو إفريقية، وقد حاول عبد الله بن سعد بن أبي سرح الاحتفاظ بهذا الانتصار عن طريق المعاهدة، غير أن ما جد من حوادث في مركز الخلافة قد حال بين المسلمين وبين الاحتفاظ بما فتحوا، وتوقفت بذلك الفتوح أواخر خلافة عثمان، وزمن علي، وصدرا من خلافة معاوية فلما علم الأفارقة بما حدث عند المسلمين من نزاع واقتراق على الطاعة لم يحفظوا عهدهم بل نقضوه وأبوا أن يعطوا الخراج الذي صالحوا عليه وكان عبد الله بن سعد حينما عاد إلى مصر ترك عليها عبد الله بن نافع بن عبد القيس، فلما طلبهم بدفع ما عليهم، ثارت ثائرتهم، فاضطر إلى النجاة بمن معه، وترك البلاد يعسف بها الثوار من الأفارقة⁽²⁾ إلى أن كانت سنة خمس وأربعين للهجرة حين عهد معاوية بن أبي سفيان لمعاوية بن حديج الكندي الذي كانت له صحبة ورواية بقيادة الحملة الثانية إلى إفريقية فسرّح ابن حديج أمامه السرايا والجيوش، وكلف عقبة بتمهيد الفتح في المناطق المنتفضة بين طرابلس وجبل نفوسة ثم دخل إفريقية، واتجه شمالا محاذيا "لقابس" حتى نزل بجيشه في مكان يقال له "القرن"⁽³⁾ حيث بعث إلى "جلولاء" عبد الملك بن مروان في ألف رجل ففتحها، ثم أرسل عبد الله بن الزبير فهزم الروم قرب "قصر الجم" وفتح "سوسة" واتجه معاوية بن حديج إلى "بزرت" ففتحها من دون أن يخوض معارك فاصلة كما وقع لابن أبي سرح في الحملة الأولى، ثم رجع ابن حديج إلى مصر بعد أن خلد آثارا حسنة، وفي سنة خمسين للهجرة عين الخليفة عقبة بن نافع الفهري القرشي لقيادة الحملة الثالثة فخرج ومعه جماعة من الصحابة منهم أبو زمعة عبيد الله بن أرقم البلوي الأنصاري - صاحب المقام المعروف به خارج القيروان - فأعاد فتح "وّدان" [في القطر الليبي] و"قفصة" و"نقطة" و"الحامة" واستنزل قبائل كثيرة على الطاعة وأمدّهم بالمعلمين والمرشدين ليفقهوهم في الدين، وانضم إليه كثير من البربر

(1) ابن خلدون، العبر، دار الكتاب اللبناني - بيروت : 1981، 2 / 129.

(2) الثعالبي، عبد العزيز، تاريخ شمال إفريقيا، دار الغرب الإسلامي ط1 - 1407 هـ / 1987 م - ط2 1410 / 1990 م ص : 35 .

(3) القرن : هو عين المكان الذي يدعى اليوم "بطن القرن". البالغ ارتفاعه 171 م والواقع على بعد 12 كلم. من القيروان على الطريق الواصلة بين هذه المدينة وجلولاء فهناك اتخذ العرب أول معسكر عاصمة قبل تأسيسهم القيروان، انظر : الطالبي، محمد، دراسات في تاريخ إفريقية، منشورات الجامعة التونسية، ط، 1982 م، ص : 119.

الذين أسلموا ولكنه أدرك أن ذلك لا يكفي وحده لهدايتهم ما لم يقترن بوجود مؤسسات اجتماعية للمسلمين، يفرعون إليها عند الحاجة يقتبسون منها محتويات الإسلام وتقاليده، فجعل يفكر في تحقيق هذه الرغبة العظيمة وكان تجسيما بإنشاء مدينة "القيروان".

❖ **المرحلة الأولى :** من تاريخ إنشاء القيروان إلى انتهاء ولاية موسى بن نصير أي [من سنة 50 هـ / 670 م إلى سنة 96 هـ / 714 م]، وهي مرحلة تقوم فيها القيروان بدور الإعداد والتجديد والمراقبة للفتح في إفريقية والمغرب، أو هي المركز الذي يقوم بعملية تسيير الفتح، استقر عزم عقبة على تحقيق هذه الرغبة، فدعا للمشورة في ذلك ذوي الرأي والمكانة من قواده ووجوه المسلمين وخطب فيهم بمشروع الخطة وصف فيها نفسية الأفارقة وصفا بليغا فقال : " إن أهل هذه البلاد ضعفاء الأخلاق تنقصهم العزيمة، إذا عصتهم السيف أطاعوا وإذا رفع عنهم عصوا وعادوا إلى ما كانوا عليه من عاداتهم واديانهم، ولست أرى أن ينزل المسلمون بين أظهرهم ثم يرتحلوا عنهم، رأيا سديدا مسلما، بل لابد من إقرارهم لتمكين الإسلام في البلاد، و قد رأيت في ذلك أن أبني هنا مدينة للمسلمين تكون عمادا لهم في أمورهم وملذا يصيرون إليه" (1) فقرّر عزمهم على إقامة مدينة تكون قاعدة إسلامية وعاصمة يزود عنها المسلمون ومنطلقا لحملات الفتح في تلك البلاد وغيرها من بلاد المغرب، فخرجوا يرتادون الجهات فوجدوا موزعا بنوا فيه "القيروان" (2) وهي أجمة عظيمة في طرف البر، وغبضة شعراء لا تشقها الحيات من تشابك أغصانها وكثرة نباتاتها(3) ووصفه اليعقوبي : "بأنه موضع دغل وحلفاء تنزله الأسد" (4) فوقع المكان من نفس عقبة موقعا عظيما وقال في اختياره " إنه واقع في الصحراء البعيدة عن البحر لا تطرقه مراكب الروم ولا تملكه علينا" (5) ثم أمر برسم الخطط، بعد قلع الأشجار وتنظيف موقعها، فبنيت دار الإمارة، والمسجد

(1) ابن عذاري، البيان المغرب : 13 / 1 .

(2) القيروان : لفظ فارسي دخيل ومعناه محط الجيش و مناخ القافلة و موضع اجتماع الناس.

(3) المالكي، رياض النفوس، تح البكوش، مراجعة محمد العروسي المطوي دار الغرب الإسلامي - بيروت - 1983 ص 328، ابن الأثير، أسد الغاية، دار إحياء التراث العربي - بيروت 1970م / 60.

(4) تاريخ اليعقوبي تح مهنا - مؤسسة الأعلى للمطبوعات - بيروت ط1 - 1413 هـ / 1993 م : 2 / 138.

(5) ابن عبد الحكم، فتوح مصر : ص 54.

الجامع، وطفق الناس يعمرّون حولها وما أتت سنة 55 هـ / 674 م للهجرة حتّى استقامت وعمّرت ودعيت "بالقيروان" وبني حولها سور حصين دوره 13600 ذراع⁽¹⁾ ثم جعلها يوم تمّت عاصمة للبلاد ومركزاً للجند، وساس من خلالها البلاد الإفريقية⁽²⁾.

قال ابن الأثير : دخل كثير من البربر في الإسلام وآنست خطة المسلمين وقوي جنان من هناك من الجنود بمدينة " القيروان " واطمأنوا على المقام فنبت الإسلام فيها⁽³⁾ ولقد كان من أسباب قيام الدّول العظيمة إفساح المجال للعبريين من رجالها ذوي المواهب النادرة أمثال عقبة لتتفيذ ما وسعته أدمغتهم الكبيرة من الخطط العظيمة للفتح والإصلاح فلم يكد عقبة ينتهي من تأسيس القيروان وبسّط نفوذه على إفريقية حتّى فوجئ بعزله وتولية أبي المهاجر دينار سنة 55 هـ / 674 م، قال البلاذري : "عزل معاوية بن أبي سفيان واليه معاوية بن حديج وولّى مصر والمغرب مسلمة بن مخلد الأنصاري، فولى مسلمة مولاه أبا المهاجر إفريقية فلما ولي يزيد بن معاوية رد عقبة بن نافع إلى عمله"،⁽⁴⁾ وقد استمرت ولاية أبي المهاجر إلى سنة اثنتين وستين فتح فيها جزيرة شريك⁽⁵⁾ ونزل بالفحص وبنى بها ومنها حارب أهل قرطاجنة ثم عقد معهم صلحا، ثم اتجه بجيوشه إلى المغرب الأوسط [الجزائر] فنازل البربر في عقر دارهم وتغلب عليهم واستطاع أن يتألف كثيرا منهم حتّى اعتنقوا الإسلام، وولى منهم قادة في الفتوح، وكان أبو المهاجر قد نزل "عيونا" عند تلمسان تعرف الآن بعيون أبي المهاجر، فزحف منها إلى كسيلة - وهو في عدة من قبائل البرانس - فظفر به أبو المهاجر وعرض عليه الإسلام فأسلم فأحسن إليه أبو المهاجر واستبقاه⁽⁶⁾.

وكان كُسيْلَة على دين النصرانية وكان رئيسا "لأوربة" التي كانت تنزعم البربر آنذاك، وكان أبو المهاجر قد مكث في حملته على المغرب الأوسط ما يزيد على العامين، وقد وصل بالفتح إلى مدن كثيرة على سواحل البحر كمدينة

(1) البلاذري، فتوح البلدان : 230.

(2) الثعالبي، تاريخ شمال إفريقيا : 45.

(3) ابن الأثير : الكامل في التاريخ 44/3.

(4) البلاذري، فتوح البلدان : 230.

(5) نسبة إلى شريك بن قرّة العبسي وهي المعروفة اليوم بالوطن القبلي.

(6) زينون، محمد، القيروان و دورها في الحضارة الإسلامية : 31.

بجاية، وتلمسان، فلما عاد إلى القيروان، وافاه رسول يزيد بن معاوية بالإعفاء، وبتولية عقبة مكانه — من جديد — وذلك سنة 62 هـ / 681 م، فقدم عقبة القيروان في عشرة آلاف فارس، وابتدأ : عمله من حيث تركه : فبدأ بتعمير القيروان وإعادتها إلى سابق عهدها، وجعلها موطنًا ومقرًا للمسلمين، بعد أن كان أبو المهاجر قد هجرها واتخذ مدينة "تكران" موطنًا في جبل وسلات، وهي موضع المعسكر الذي أقامه معاوية بن حديج لجنوده.

ثم إنَّ عقبة بادر بحملة كبيرة على المغرب طويلة وسريعة وصل فيها إلى المحيط ، قاتل فيها الروم والبربر وأنتصر على كل من لاقاه، وأفتتح حصون الفرنجة مثل "باغاية"⁽¹⁾ و"لميس"⁽²⁾ ولقيهُ ملوك البربر بالزَّاب"⁽³⁾ و"تاهرت"⁽⁴⁾ ففضَّهم ثم جاوز إلى المغرب الأقصى فأطاعته قبيلة "غمارة" ثم أجاز إلى بلاد "السوس"⁽⁵⁾ لقتال من بها من "صنهاجة" أهل اللثام وهم يومئذ على دين المجوسية حتى انتهى إلى "تارودانت"⁽⁶⁾ وهزم جموع البربر بها وقاتل "مسوفة"⁽⁷⁾ من وراء السوس وساسهم وقفل راجعا إلى القيروان⁽⁸⁾ وكان قد ترك بها جندا، استخلف عليهم زهير بن قيس البلوي، فلما كان "بطبنة"⁽⁹⁾ وهي على مسيرة ثمانى مراحل من القيروان، سرح جنده وأمرهم أن يدخلوها فوجا بعد فوج وتخلف عنهم في نحو ثلاثمائة نفر من خاصته وأتباعه، ومعهم أبو المهاجر دينار وانتقل بمن رافقه إلى "تهودا"⁽¹⁰⁾ وكانت فلول البربر الناقمين عليه تتربص به الدوائر فلما وجدته في قلة من أصحابه اغتتمت الفرصة فعرض له كسيلة في جمع كبير من

- (1) باغاية : مدينة كبرى في أقصى إفريقية بين مجانة وقسنطينية، وهي حصن بربري قديم وكان أهلها من البربر والروم، شيت خطاب، قادة فتح المغرب : 1 / 91 .
- (2) لميس أو نفيس منطقة من بلاد السوس الأقصى بالمغرب.
- (3) بلاد الزاب : بلاد واسعة من منها بسكرة وقسنطينة وقصة.
- (4) تاهرت : اسم لمدينتين متقابلتين بأقصى المغرب، يقال لأحدهما "تاهرت" القديمة وللأخرى "تاهرت" الجديدة" شيت خطاب، قادة فتح المغرب : 1 / 109.
- (5) السوس الأدنى والأقصى كلاهما بالمغرب، والأدنى مدينته طنجة والأقصى : الجنوب.
- (6) تارودانت : مدينة بربرية تقع جنوب السوس الأقصى.
- (7) مسوفة : قبيلة بربرية موطنها جنوب السوس الأقصى.
- (8) ابن خلدون، العبر : 6 / 107.
- (9) طبنة : بلدة في طرف إفريقية مما يلي المغرب الأوسط على ضفة الزاب.
- (10) تهودة : مدينة في جنوب جبل أوراس وفي الجنوب الشرقي لمدينة "طبنة" تبعد عنها 37 ميلا.

البربر، وكان كسيلة قد بلغه افتراق الناس عن عقبة ، فاقبضوا قتالا شديدا واستشهد عقبة ومن معه⁽¹⁾ وذلك سنة ثلاث وستين، ثم بعد الواقعة زحف كسيلة على "القيروان" فلما علم المسلمون بالخبر وأن لا طاقة لهم بهذه الجموع الجاررة من البربر ومن التحقوا بهم من الروم، ارتحلوا إلى "برقة" وتركوا القيروان ليستولي عليها كسيلة قال المالكي : "انقلبت إفريقية نارا وعظم البلاء على المسلمين فخرجوا هاربين لعظم ما اجتمع من البربر والروم مع كسيلة"⁽²⁾ ثم إن كسيلة أقام نفسه أميرا عليها خمس سنين وقارن ذلك مهلك يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، واضطراب الأمر بالمشرق بسبب الصراعات السياسية⁽³⁾ فلما توطدت قدم عبد الملك بن مروان في الخلافة وضعفت آثار الفتنة بالمشرق، سألته الناس تخليص إفريقية ومن بها من المسلمين من يد كسيلة فقال "لا يصلح للطلب بدم عقبة من الروم والبربر إلا من هو مثله دينا وعقلا" فاستشار وزراءه، فاجتمع رأيهم على تقديم زهير بن قيس البلوي، وقالوا هذا صاحب عقبة وأعلم الناس بسيرته وتديبه، وكان زهير " بـبرقة " فأمره بالخروج وأمدّه بالخيـل والرجال والأموال وحشد إليه وجوه العرب، فوفدت الجيوش على زهير وتسرع الناس معه إلى إفريقية⁽⁴⁾ وكان ذلك سنة تسع وستين للهجرة، فلما سمع كسيلة بنفاذه إلى إفريقية، جمع إليه وجوه البربر والروم يستشيرهم في الأمر وقال : " إني رأيت أن أخلي القيروان وأرحل إلى "نمش"⁽⁵⁾ فأنزلهـا فإن بالقيروان خلقا كثيرا من المسلمين ولهم علينا عهد لا نريد أن نخفـره أو نغدر بهم، ونخاف إن نحن قاتلنا زهيرا عليها أن يثب هؤلاء من ورائنا فتكون الدائرة علينا أما إذا نزلنا "نمش"، فإننا نكون قد أمناهم وقاتلنا زهيرا، فإن ظفرنا بجنوده تبعناهم إلى طرابلس وقطعنا عنهم خط الرجعة بعد أن نكون قد قطعنا شأفتهم من البلاد، وإن ظفروا بنا تعلقنا بالجبال ونجونا من غائلتهم" فطبـقوه على ذلك⁽⁶⁾. فلما

(1) ابن عبد الحكم، فتوح مصر : 198.

(2) المالكي، رياض النفوس : ص 28.

(3) مخلوف، محمد، شجرة النور الزكية، التتمة - دار الكتاب العربي - بيروت ط1 - 1349 هـ ص 97.

(4) البيان المغرب : 19/1 .

(5) نمش أو نمش : مدينة بيزنطية قديمة و تقع في جنوب القيروان، المالكي، رياض النفوس - الهامش- ص 28

(6) الثعالبي، تاريخ شمال إفريقيا : ص 57.

رحل كسيلة إلى ممّش وبلغ زهيراً خبر ارتحاله، عدل عن دخول القيروان فأقام بظاهرها ثلاثة أيام، استراح فيها الجيش ثم خرج في اليوم الرابع إلى كسيلة، فاقتتل الجيشان قتالاً شديداً فلما كان آخر النهار، هبت رياح النصر على المسلمين فانهزم كسيلة ومن معه إلى «ممش»، ولم يتركوا له فرصة الفرار وقتل، وطوردت فلول البربر وافتكت من أيديهم مدن كثيرة لم يدخلها المسلمون من قبل كالإربس وباجة والكاف، ومضى زهير في تثبيت الفتحة ثم عاد إلى القيروان ولكنه لم يستقر بها حتى ترامت إليه أنباء عن أن الروم انتهزوا فرصة اشتغال زهير بمقاومة البربر، فانزلوا مراكبهم "ببرقة" وأخذوا يشنون الغارة على من بها من المسلمين، فأصابوا سبياً ونهباً، فخرج إليهم زهير يتعقب خطاهم على طريق البحر إلى أن بلغ "درنة" وهي مدينة من أعمال "برقة" فلما رأى ما أوقعوه بالناس، اقتحم زهير بجيشه ساحة النزال - وكان في عدة غير كافية - وكان الروم في عدة كبيرة، فاستشهد ومن معه فعظم ذلك على عبد الملك لما كان يعلم من فضل من استشهد ببرقة ثم نظر فيمن يصلح لأمر إفريقية - التي تعودت على الردة - فلم يجد أكفأ من حسان بن النعمان الغساني فأنفذه في أربعين ألفاً، فأقام في بداية أمره بالقيروان [إذ كان لا بد من تخليص مركز القيادة الإسلامية أولاً من سيطرة البربر ثم قصد قرطاجنة ففتحها وذلك لقطع الإمداد على البربر ثم قصد "دميا"، الكاهنة المشهورة - وكانت في جموع عظيمة من البربر - قد اتخذت جبل "أوراس"⁽¹⁾ قاعدة لها، وكان من معاناة المسلمين أنهم وصلوا مساء إلى مكان تجمع البربر فباتوا وقواً على سرج الخيل⁽²⁾ فانهزم حسان هزيمة منكراً⁽³⁾، وقتل من العرب خلق كثير، واتبعته الكاهنة من المغرب الأوسط حتى حدود "قابس" وأسلم كل إفريقية، فلما التحق بمأمنه بطرابلس كتب إلى الخليفة عبد الملك بالواقعة، يستجده لإعادة الكرّة ويعتذر عن انكساره ومن ضمن ما قاله في ذلك : "إن أمم المغرب ليس لها غاية، ولا يقف أحد منها على نهاية كلما بادت أمة خلفتها أمم، وهي من الحفل والكثرة كسائمة الغنم" وذكر ما أصاب جنوده من كثرة الجراح والقتل وقال إنه ينتظر أمر أمير المؤمنين، ثم بعث بالكتاب، فجاءه الأمر بأن يقيم حيث يصله الكتاب، إلى أن

(1) جنوب "قسنطينة" الجزائرية، وفيه عدة مدن وقبائل من البربر.

(2) الرقيق، تاريخ إفريقية والمغرب، دار الغرب الإسلامي - ط 1 - 1990 م ص 24.

(3) في يوم سمي بيوم البلاء.

توافيه الجنود، وكان يومئذ ببرقة، فأقام خمس سنين ينتظر المدد⁽¹⁾ في تلك الفترة الطويلة تسلطت الكاهنة على البلاد بقسميها، أفريقية ونوميديا، وحكمتها، وكانت تعتقد أن غاية المسلم هي المال، فدعت قومها وقالت لهم: "إنّ العرب لا يريدون من بلادنا إلاّ الذهب والفضة والمدن، ونحن تكفينا منها المزارع والمراعي ولسنا نأمن غائلتهم إلاّ إذا قطعنا تأميلهم وخرّبنا المدن والحصون وقطعنا الأشجار، فإذا علموا بذلك ضعفت أطماعهم ولن يرجعوا إلينا أبداً" فوافقوها على ذلك، وندبت جنودها وبتّتهم في كل مكان، ومازالوا مثابرين على التدمير إلى أن صيّرُوا البلاد قاعاً صفصفاً لا ترى فيها إلاّ الأطلال والدمن⁽²⁾ وقد كانت ظلاً واحداً ظليلاً من طرابلس إلى طنجة، قرى متصلة، ومدائن متسقة ومساكن طيبة، وحدائق زاهرة وأراضي عامرة، وأكواراً مأهولة ومياهاً جارية ونعماً وافرة، كما وصف ذلك مؤرخونا القدامى الذين رافقوا الفتوحات الأولى، فقد ذكروا أنّه لم يكن في أقاليم الدنيا أوفر خيرات، ولا أدرّ بركات ولا أنظر مدائن ولا أنسق عمراناً من إفريقية، وقد أثبت ابن عذاري المراكشي قولهم بالمساحة فقال: "إنّ العمارة كانت متصلة مسافة ألفي ميل في مثلها، فأنت عليها الكاهنة بالقطع والتخريب⁽³⁾ وخرج منها أكثر الأفارقة المنكوبين إلى الأندلس وغيرها قال الإمام الفقيه عبد الرحمان بن زياد بن أنعم كان بإفريقية قبل التخريب 100.000 حصن بين مدينة وقرية وكان الروم إذا أرادوا الغزو بعثوا إلى كل حصن يأتي منه فارس ودينار فيجتمع من ذلك 100.000 فارس و100.000 دينار ولا ينقص من البلاد شيء، إلى أن قال: "ومن تأمل في أطلال هذه المدن والقصور وتدانيها بعضها من بعض، رأى من ذلك ما يفضي إلى العجب، وأيقن بكثرة عمارتها في السالف، وكذلك إذا تأمل في أشجارها وغارسها رآها على اعتدال وترتيب ينبئان أنها كانت مغروسة لا نابتة⁽⁴⁾ فلما بلغ المسلمين ما فعلته الكاهنة سألوا عبد الملك أن يسرع لتدارك هذه البلاد وإنقاذ أهلها من العسف والجور، وإلا هلك الناس وفات وقت التدارك، فأجابهم إلى ذلك وأمر بسوق الأجناد والأموال و السلاح إلى حسان وأذنه بالخروج، فبث حسان أمامه العيون يتعرف بهم قوات البربر وجمعهم،

(1) تاريخ شمال إفريقيا : 72.

(2) الدمن ج دمنه : وهي آثار المنزل.

(3) البيان المغرب : 1 / 26.

(4) الثعالبي، تاريخ شمال إفريقيا. ص : 74.

فأخبروه أنهم متفرون قد اختل نظامهم وساعت أحوالهم، وشاء الله سبحانه أن يكون ما قامت به الكاهنة سببا في ضعف البربر واختلاف كلمتهم واستعدادهم لقبول من سينقذهم من الكاهنة، فلما وقف حسان على ذلك أسرع في طي المراحل، فلما بلغ "قابس" خرج إليه الأهالي يستقبلونه بالحفل ويقدمون له شعائر الطاعة، وكانوا قبل ذلك يتحصنون من لقاء المسلمين كما وافته وفود "نفزاوة" و"قفصة" و"قسطيلية"⁽¹⁾ يستجدون به وفيهم جموع من النصراني، وأسرع حسان في طلب الكاهنة إلى أن وافاها على "الجم"، فقاتلها قتالا عنيفا ودارت الدائرة عليها فولت على أعقابها، وتبعها حسان إلى أن ظفر بها في "طبرقة". وبعد مهلك الكاهنة صفت إفريقية لحسان، واستراحت البلاد من عسفا وجورها، وأقبل الأفارقة عليه من كل صوب يستأمنونه فأمنهم جميعا واستوثق منهم بتجنيد اثني عشر ألفا من أبناء رؤسائهم وعشائهم، ولما حضروا إليه دعاهم إلى الإسلام فأسلموا جميعا وندب ولدي الكاهنة، فعقد لكل واحد منهما على ستة آلاف من أولئك المواطنين وخولهما أسمى رتب الجيش، فأخرجهم وسير معهم ستة آلاف من العرب لاكتساح المرتدين في المغرب الأقصى وموريتانيا، وجعل مقرهم ثغر طنجة وأقام لهم المعلمين يعلمونهم العربية والدين، ولما استقرت البلاد وانقطعت عنها الفتن قصد حسان "القيروان" فدخلها دخول القائد الظافر في رمضان سنة 82 هـ / 701 م⁽²⁾ وبعد انقضاء العيد سير مولاة أبا صالح إلى قلعة "زغوان" وكانت شديدة المنعة من قبل ففتحها صلحا ثم عاد إلى "القيروان" ولم يبق من إفريقية لم يفتح إلا الجزر التابعة لها، التي اعتصم بها الروم واتخذوها مكمنا للصوصهم يُغيرون منها على الشطوط فكتب بذلك إلى عبد الملك يسأله أن يمدّه بالأسطول لمنازلتها وحملها على التسليم فأمدّه بعمارة بحرية بقيادة عبد الملك بن قطن فقصده تلك الجزر واستنزلها على الطاعة وأمن إفريقية من غوائل الروم ولم يكن حسان رجل الفتح فقط بل كان أيضا رجل السياسة والإدارة، فدون الدواوين ومسح الأراضي وقطع عليها الخراج ووزعها على أهلها القدماء، هذه الأراضي التي افتكها منهم الرومان، وأبطل نظام الإقطاع الذي أصبح عن طريقه

(1) قسطيلية : بلد بالمغرب من أرض الزاب الكبير، الحموي، ياقوت، معجم البلدان تح إحصان عباس، دار الغرب الإسلامي - لبنان - ط1 - 1993 م 7 / 88.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب : 1 / 29، زيتون محمد، القيروان و دورها في الحضارة الإسلامية : 63.

الملاك الأصليون أقنأنا مستخدمين عند الغزاة البيزنطيين، ومهد الطرقات وشيد المحارس والرباطات، ودفع الناس إلى العمارة وتجديد الغراس، وإحياء الأراضي الموات وأنباط المياه، ونشط لإقامة المساجد وتعميرها، كما وسع جامع عقبة، ولحماية الحدود الساحلية القريبة من البلاد النصرانية فكر في إنشاء أسطول بحري، فكتب الخليفة في ذلك فاستحسن عبد الملك ذلك وأرسل إلى أخيه عبد العزيز - وكان على مصر - أن يوجه إلى إفريقية ألف قبلي من بناء المراكب لإنشاء أسطول فوافوا حسان - وهو يومئذ مقيم "بتونس" - ثم أجرى البحر من رادس ووصله "بقرطاج" اثني عشر ميلا، وبنى على طرف منها "دار الصناعة" [صناعة السفن] وأمر بجلب الأخشاب من الغابات⁽¹⁾ ودار فيها العمل، فأنزلت إلى البحر عدة مراكب تعزز بها الدفاع، ولما علم بذلك أفاضل التابعين في المشرق كتبوا إلى المسلمين في المغرب يحرضونهم على التجنيد البحري، وقالوا لهم : "من رابط عنا يوما "برادس" حجنا عنه في المشرق ووهبنا له ثواب الحج"⁽²⁾ ثم كانت ولاية موسى بن نصير - برغبة من عبد العزيز بن مروان وإلى مصر - وكان موسى من صفوة رجال الدولة الأموية كفاءة واقتدارا، وكانت كلمة الإسلام قد استقرت نهائيا في عهده، قال أبو محمد عبد الله بن أبي زيد : "ارتدت البرابرة بالمغرب اثنتي عشرة مرة ولم تستقر كلمة الإسلام فيهم إلا بعهد ولاية موسى بن نصير"⁽³⁾ فلما قدم إفريقية فتح "زغوان" وغيرها، وقتل المخالفين، وبعث أسطوله لصقلية، فغنم المغنم العظيمة، وغزا بلاد المغرب وطنجة وانحدر على ساحل المحيط الأطلسي حتى بلغ وادي "درعا" وأخضع القبائل التي ارتدت عن الإسلام بعد مقتل عقبة، ولم يكن موسى قائدا فحسب بل كان مصلحا وسياسيا أيضا فقد قرب البربر إليه وحببهم في الحكومة الإسلامية، فولاهم الأعمال وأشركهم مع العرب في إدارة البلاد.⁽⁴⁾ وقد وجد البربر أن انضمامهم إلى العرب يتيح لهم مزايا مادية كثيرة، فأقبلوا على الإسلام إقبالا عظيما. وكان نشر الإسلام يسير مع الفتح جنبا إلى جنب، إذ أخذ موسى يفقه الناس في الدين وينشئ المساجد في البلاد التي فتحها، وأتيح

(1) البكري، "المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب" : 38، "تاريخ شمال إفريقيا" : ص 78.

(2) الرقيق، "تاريخ إفريقية والمغرب" : 36، ابن أبي دينار، "المؤنس في أخبار إفريقية وتونس" تح محمد شمام تونس 1380 هـ، ص 15؛ الحميري، "الروض المعطار" ، تح إحسان عباس - مكتبة لبنان ط 2 - 1984 م ص 266.

(3) مخلوف، محمد، شجرة النور الزكية - التتمة - ص 107.

(4) د.إبراهيم حسن، انتشار الإسلام : ص 89.

للبربر أن يجنوا ثمار الثقافة الإسلامية بعد قليل. ولما استقرت له القواعد بالمغرب كتب لمولاه طارق بن زياد - وهو بطنجة - بغزو الأندلس فغزاها وفتحها سنة اثنتين وتسعين ثم لحق به موسى سنة ثلاث وتسعين وكمل فتحها وجمع غنائمها الكثيرة ورجع إلى القيروان وأواخر سنة خمس وتسعين ثم استخلف أبناءه على إفريقية والمغرب والأندلس وعاد إلى المشرق، فعزل عن ولاية إفريقية (سنة 96 هـ / 714 م) للهجرة بمجيء سليمان بن عبد الملك إلى الخلافة⁽¹⁾ وخلاصة هذه المرحلة أنه بتأسيس " القيروان " في إفريقية [وهي القطر التونسي الآن] على يد عقبة بن نافع سنة خمسين للهجرة تهيأ للعرب مركز حصين اتخذوه قاعدة لنشر الإسلام في شمال القارة الإفريقية وغربها.

❖ المرحلة الثانية : مرحلة القادة السياسيين "مرحلة الولاة" :

وتبدأ من انتهاء عهد موسى بن نصير [سنة 96 هـ / 714 م] إلى قيام الدولة الأغلبية [سنة 184 هـ / 800 م] وهناك من المؤرخين من يجعل ابتداء هذه المرحلة الثانية بانتهاء عهد حسان بن النعمان الذي مهد لاستقرار الإسلام في إفريقية والذي انتهت في عهده ردة البربر عن الإسلام، والواقع أن موسى بن نصير في الفترة التي تولى فيها إفريقية [ما بين سنة 84 هـ / 703 م وسنة 96 هـ / 714 م] قد تم فتح آخر المعاقل البربرية في المغرب ولم يبق في إفريقية من ينازعه وبسط نفوذه على بلاد " السوس " [المغرب الأقصى] وفي عهده فتح طارق بن زياد الأندلس⁽²⁾ وبذلك صارت الأندلس تابعة للقيروان، وقد امتازت هذه المرحلة الثانية بكثرة الثورات العاتية، وقد تعرضت القيروان في بعضها للحصار بل تمكن الثوار في أحيان كثيرة من طرد السلطة الحاكمة من مقرها والاستيلاء على القيروان وانتهاك حرمانها إلى أن قامت دولة الأغلبية وأهم ما يطبع هذه المرحلة - مرحلة الولاة - أن الصراع في إفريقية وفي القيروان خاصة - باعتبارها عاصمة الإسلام الغربية - قد تحول بين العرب والبربر إلى صراع سياسي مذهبي، بعد أن كان صراعا دينيا عقائديا، بين عرب مسلمين وبربر وثنيين، فلما بسط الإسلام نفوذه في ربوع إفريقية والمغرب، وتحول جمهور الناس عن عقيدة الشرك وجدوا كثيرا من الفجوات

(1) فتوح مصر : 210، القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية : 104.

(2) البلاذري، فتوح البلدان : 232، ابن الأثير، الكامل : 4 / 259.

السلوكية عند الحاملين للفكرة الإسلامية وخاصة منهم الولاة الممثلون لحكم بني أمية ثم بني العباس، الأمر الذي أنشأ في نفوسهم النفور والاعتراض على كيفية تمثّل الإسلام والحكم به، وترجمت هذه المعارضة في تبني المسلمين من البربر لمذاهب الخوارج المتطرفة التي سبق تفتّق بذورها في المشرق، وليس بعيداً أن يكون كثير من أفراد جيوش الإسلام التي قدمت زمن الفتح من العراق وخراسان والجزيرة ومصر، قد زرعت مظاهر المغالاة والحدة والخروج عند البربر، خصوصاً إذا علمنا أن هناك شبهاً من الطبائع والجماليات والأحوال بين عرب شرق الجزيرة والبربر [أو بين الأعراب والبربر] هذه الصفات إذا اقترنت بمعارضة السلطة المركزية لا تنتج إلا شعور النعمة والانبئات، وهنا بالذات سيظهر في هذه المرحلة الدور العظيم الذي ستقوم به القيروان، وخاصة أيمتها من التابعين وتابعي التابعين من ترسيخ العقيدة السنية، ومقاومة ضلالات الخوارج من الصفرية وغيرهم وذلك بنشر العلم، وتعليم السنة النبوية، والدعوة بالحسنى، ويظهر من خلال هذا العرض التاريخي السريع معاناة الفضلاء والصلحاء من المسلمين لتقويم عقيدة البربر وتصحيح فكرهم، فرحم الله هؤلاء البررة، كان لهما أجران، الأول : جزاء لمكابدتهم لإسلام البربر، والثاني : جزاء لصبرهم في تقويم هذا الإسلام وتعديله.

تبدأ هذه المرحلة الثانية بتولي سليمان بن عبد الملك الخلافة، فعزل موسى بن نصير عن ولاية إفريقية والمغرب - لموجدة وجدها عليه - وعين مكانه محمد بن يزيد - مولى قریش - وقال له : " يا محمد بن يزيد اتق الله وحده لا شريك له وقم فيمن وليتك بالحق والعدل، اللهم اشهد عليه"، فخرج وهو يقول : " مالي عذر إن لم أعدل"⁽¹⁾ فقدم إفريقية سنة 97 هـ / 715 م - وكان عادلاً حسن السيرة، ولم تطل ولايته لوفاة سليمان [سنة 99 هـ / 717 م] ثم جاء إلى الخلافة عمر ابن عبد العزيز الذي استعمل على إفريقية إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر - مولى بنى مخزوم - فوصلها سنة 100 هـ / 718 م، وكان خير وال حريصاً على دعوة البربر للإسلام، ذكر أبو العرب التميمي⁽²⁾ أن عمر بن عبد العزيز أرسل عشرة من التابعين يفقهون أهل المغرب في

(1) الرقيق، تاريخ فتح إفريقية : 93، القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية : 105.

(2) أبو العرب محمد بن أحمد التميمي المغربي الإفريقي، مؤرخ، حافظ للحديث من أهل القيروان بإفريقية له تصانيف عديدة [251 هـ - 333 هـ]، الزر كلّي، الأعلام، دار العلم للملايين - بيروت ط8 - 1989 م 5 / 309.

الدين⁽¹⁾ برئاسة أبي عبد الرحمن عبد الله الحبلي منهم عبد الرحمن بن نافع التتوخي وسعيد بن مسعود التجيبي وعبد الله بن يزيد العامري وحيّان بن حبلّة القرشي وقد فتح الله بهم على إفريقية أضعاف ما فتحه السيف⁽²⁾ ناهيك بما بلغت إليه القيروان وتونس وبجاية وتلمسان وإشبيلية من الشهرة وبعد الصيت في العلم وما كان لهؤلاء العلماء من الفضل في تعليم الدّين وتقويم اللسان والكشف عن مظاهر الزّيف والضلالة في العقيدة، حتى لم يبق يومئذ من البربر أحد إلا أسلم كما ذكر ابن عبد الحكم⁽³⁾ ثمّ تولى يزيد بن عبد الملك الخلافة سنة 101 هـ / 719 م، فبعث على إفريقية يزيد بن أبي مسلم الثقفي مولى الحجاج بن يوسف وكتبه، وكان - كسيده - ظلوما غشوما، فسار السيرة الحجاجية، من التعصب الشديد لبني أمية والتشيع لمذهب الحاكمية العربية وكرامية المضي في سياسة التشريك والمساواة التي ألفها سكان هذه البلاد من الولاة السابقين فشرع في تغييرها وأخذ في تجريد الأفارقة مما كان لهم من حقوق وضمانات منذ تعلقوا بالإسلام، فمن ذلك أراد إرجاع معاملة من أسلم من أهل الذمة في إفريقية، إلى ما كانوا عليه قبل الإسلام، كما صنع الحجاج في العراق، فردهم إلى رسائيقهم وقراهم ووضع الجزية على رقابهم فلما شرع يزيد في ذلك تأمر عليه مسلمو البربر فقتلوه⁽⁴⁾ فعهد الخليفة يزيد لبشر بن صفوان فقدم القيروان سنة 103 هـ / 721 م، ولكنه سرعان ما عاد إلى المشرق سنة 105 هـ / 723 م للاتفاق مع ولاة الأمور في دمشق على اتخاذ طريقة صالحة يجري عليها في حكم البلاد، فبلغته - وهو في الطريق - وفاة يزيد بن عبد الملك وتولي أخيه هشام الخلافة وكان هشام من أشدّ الخلفاء الأمويين تصلبا في أمر العنصرية وحاكمية العرب، فرد بشر إلى عمله، بعد أن زوده بالأوامر المتعلقة بتنسيق السياسة العنصرية في جميع الولايات⁽⁵⁾ ويرى هؤلاء الساسة الأمويون أن المساواة في الحقوق السياسية ضعف تدبير يفضي إلى فناء

(1) طبقات علماء إفريقية و تونس ص 84 انظر، ابن عذاري، البيان المغرب : 45.

(2) الثعالبى، تاريخ شمال إفريقيا : 118.

(3) حسن إبراهيم حسن، انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، القاهرة - 1964 م ص 90.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب : 1 / 46. قال يزيد على المنبر "إني رأيت أن أرسم اسم حرسى في أيديهم كما تصنع ملوك الروم بحرسها... فلما سمعوا ذلك منه [أعني حرسه] اتفقوا على قتله، وقالوا جعلنا بمنزلة النصارى".

(5) ابن عبد الحكم، فتوح مصر وإفريقية : 90.

العنصر العربي في العناصر الأخرى الداخلة في الإسلام بالنظر لكثرة أمم الأعاجم وقلة العرب، ولم يجدوا لوقايتهم من هذا الخطر الداهم غير تحصينهم بالامتيازات وجعلهم عنصرا متفوقا في الدولة، ومهما كان لهذا التغيير من مبررات، فقد كان شديد الوقع في نفسية تلك العناصر وغير بعيد أن يتحول ذلك إلى قلق يجتث أسس الوحدة الإسلامية التي تركز فيها نظام الإسلام⁽¹⁾ عاد بشر إلى إفريقية وهو متردد، محتار في تنفيذ خطة محفوفة بالمصاعب، يعوقه عنها أمران : الأول : ضعف حجته في العمل بتوصيات حكامه، خصوصا وأن الشريعة لا تسوغ مثل هذه التصرفات. الثاني : الخوف من إيقاظ الفتنة باسم العنصريات وقد أطفأها الله بالإسلام فتهبَّ بشر الصراحة بذلك، وفضل التكتم ومعالجة الأمور بالحسنى إلى أن توفي سنة 109 هـ / 727 م، وبقي على القيروان خليفته نغاش بن قرط الكلبي حتى وصل وال من قبل الخليفة، وكان الكلبي هذا عصبيا صليب الرأي مغامرا عكس ما كان عليه بشر من مسابرة ولين، فأظهر أحقية العرب في التفوق والامتياز بالوظائف والعطاء وتهاون بحقوق البربر، فأحدث مسلكه اضطرابا وقلقا في البلاد، ولما بلغ خبره هشاما عجل بعزله لمنع الفتنة وولى عبيدة بن عبد الرحمان السلمي دون أن يحدث تغييرا في السياسة⁽²⁾، فلما قدم عبيدة سنة 110 هـ / 728 م، لم يعدل عن السياسة العنصرية بل ألح فيها، ففتك بعمال بشر وأصحابه فحبسهم وأغرمهم وعذب بعضهم وكان فيهم أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي وكان شريفا في قومه، وولي في إفريقية ولاية كبيرة في أيام بشر بن صفوان فعزله عبيدة السلمي ونكل به فقال :

أَفَأَتُمُ بَنِي مَرْوَانَ قَيْسًا دِمَاءَنَا * وَفِي اللَّهِ إِنْ لَمْ تَنْصَفُوا حَكْمَ عَدْلٍ
كَأَنَّكُمْ لَمْ تَشْهَدُوا مَرْجَ رَاهِطٍ * وَلَمْ تَعْلَمُوا مَنْ كَانَ ثَمَّ لَهُ الْفَضْلُ
تَعَامَيْتُمْ عَنَّا بَعِينَ جَلِيَّةً * وَأَنْتُمْ كَذَا مَا قَدْ عَلِمْنَا لَنَا فَعْلَ

وبعث بهذه الأبيات إلى الخليفة هشام بن عبد الملك الذي أمر بعزل عبيدة عن إفريقية والمغرب⁽³⁾ في هذه الأوضاع المتتالية من الفتن والقلقل التي

(1) السلاوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدار البيضاء 1 / 47.

(2) الثعالبي، تاريخ شمال إفريقيا : 123.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب : 1 / 50.

تسببت فيها العصبية الأموية وجور الولاة بظلمهم للبربر واحتقارهم لهم، بدأت تنبعث الثورات التي أذكى نارها الخوارج الذين حملوا لواء المقاومة وحببوا القبائل في عقائدهم ونادوا بأن الإمامة ليست مقصورة على العرب بل هي للمسلمين على حد سواء، هذه الانتفاضة للبربر على العرب بدأت في عهد عبيد الله بن الحبحاب، الذي تولى إفريقية سنة 114 هـ / 732 م، وكان في بادئ أمره حازما نبیلا، ساس ولايته الواسعة من إفريقية إلى الأندلس من مقره بالقيروان بحكمة ودراية، فبنى جامع الزيتونة وزاد في دار الصناعة، وبث حملات الفتح إلى جزر البحر المتوسط "كسرديانية" و"صقلية" ولكن عامله على طنجة والمغرب الأقصى عمر بن عبد الله المرادي أساء السيرة وتعدى في الصدقات والعشر، وأراد تخميس البربر وزعم أنهم فيء للمسلمين وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله وإنما كان الولاة يخمسون من لم يجب للإسلام فكان فعله الذميمة هذا سببا لانتفاض البلاد ووقوع الفتن العظيمة المؤدية إلى كثير القتل في العباد، فنقض أهل طنجة والمغرب طاعتهم لعبيد الله بن الحبحاب وتداغت الثورة بالمغرب كله، فكانت أول ثورة فيه وفي إفريقية في الإسلام⁽¹⁾ خرج البربر على ولاتهم احتجاجا على هذه السياسة الجائرة، بعد أن كانوا أطوع الناس للولاة وأبعد ما يكونون عن الانشقاق منذ تيامنوا بالإسلام في عهد موسى بن نصير ولم يكن للمنازع السياسة المتوثبة في المشرق، التي أثارتهما أحزاب الخوارج والشيعية أدنى تأثير في البربر بل كانوا يصدون عنها ويمنعونها أن تصل إليهم، مع أن رسل الثوار لا ينفكون عنهم ولا عن دعوتهم إلى الانضمام إليهم وافتنانهم في طاعتهم، فلما أحدث والي ابن الحبحاب في طنجة ما أحدث عقد عزم البربر على إرسال وفد إلى الخليفة هشام بن عبد الملك، يرفعون إليه ظلامتهم ويطالبون بإنصافهم، واختاروا رجلا خرجوا قبل ذلك إلى المدينة المنورة وتلقوا العلم عن أكابر التابعين، منهم ميسرة بن مطغري ومغرور بن طالوت وطريف البرغواطي، فقدموا الشام وطلبوا الدخول على هشام وانتظروه سنة كاملة وهو لا يجيبهم حتى يئسوا من لقائه فأتوا الأبرش الكلبي وزيره وقدموا له عريضة ذكروا فيها شكواهم، فوعدهم الأبرش أن يرفعها إلى الخليفة، فانتظروا فلم يجبه حينئذ رجعوا إلى المغرب يقصّون على إخوانهم ما لقوه في

(1) ابن عذاري، البيان المغرب : 1 / 52.

دمشق من الإخفاق⁽¹⁾ ولما عادوا انتحلوا مذهب الصفرية وبايعوا ميسرة بن مطغري بالخلافة وتعاهدوا على قتال العرب ككفار مرتدين عن الإسلام وقاموا يدعون البربر للثيار فتداعوا إليهم من كل صوب، فتقدم بهم ميسرة وقصد طنجة فقتلوا واليها، ثم زحفوا إلى «السوس» وعليه إسماعيل بن عبيد الله بن الحبحاب فقتلوه وانتدب ابن الحبحاب - وهو بالقيروان - خالد بن حبيب الفهري للنكاية بالبربر الثائرين في المغرب فقتل خالد في تلك الواقعة وقتل معه حماة العرب وفرسانها، ثم انتفضت إفريقية، وافتترقت الكلمة على ابن الحبحاب وأدى الأمر إلى عزله سنة 123 هـ / 740 م، ولما بلغ ذلك إلى هشام بن عبد الملك قال : " لأغضبن غضبة مضرية وأسير جيشا للبربر يكون أوله عندهم وآخره عندي"⁽²⁾ فسير كلثوم بن عياض عاملا على إفريقية والمغرب على رأس جيش عدته 12 ألف مقاتل⁽³⁾ وكتب إلى جميع البلدان التي على طريقه بالمسير معه إلى إفريقية، فقدم كلثوم على وادي "سبوا" وهو في ثلاثين ألفا جلهم من العرب، فتوجه إليهم البربر بقيادة خالد بن حميد الزناتي فأوقع الهزيمة بالعرب، فقتل كلثوم ومعه وجوه من قواده وأمراء العرب، فلما بلغ هشام مقتل واليه كلثوم وانهازم جنده، ندب إلى إفريقية عامله على مصر حنظلة بن صفوان الكلبي فجد إليها السير حتى وصل إلى القيروان سنة 124 هـ / 741 م ولم يطل مكث حنظلة بالقيروان حتى زحفت إليه الصفرية من البربر لنهبها واستباحتها في فلين عظيمين أحدهما بقيادة عكاشة الخارجي والثاني بقيادة عبد الواحد الهواري، وكان افتراقهما من الزاب، أخذ عكاشة على طريق مجانبة ونزل "القرن" قريبا من القيروان، فخرج إليه حنظلة وهزمه وقتله وأما عبد الواحد فأخذ طريق الجبال، ووصل القيروان بعد انهزام عكاشة فنزل مكانا يقال له "الأصنام" وقد بلغ جيشه ثلاثمائة ألف مقاتل فخرج إليه حنظلة بكل من كان معه بالقيروان من المسلمين، وخرج معه العلماء يحرّضون الجنود على الصبر والاستبسال في القتال، ويذكرون الناس بما سيفعله الخوارج بالقيروان وأهلها حتى كتبت الهزيمة للخوارج وقتل عبد الواحد الهواري، وقد كان لهاتين الواقعتين أثر حسن في المشرق، ونقل عن الإمام الليث بن سعد قوله : "ما غزوة

(1) تاريخ شمال إفريقيا، 136.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ : 5 / 142 - البلاذري - فتوح البلدان ص 55.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب : 1 / 56.

كنت أحب أن أشهدها بعد غزوة بدر أحب إليّ من غزوة "الأصنام" و"القرن"⁽¹⁾ ورغم هذا النصر الكبير على الخوارج، فإن الأمر لم يستقر لحظلة، إذ البربر كالعرب لا يمسكون عن الأخذ بالتأثر، وقد أفنت الحروب معهم أجناد العرب، وقلوب السكان التوت عن طاعة المروانيين، فقد خرج على حظلة عبد الرحمان بن حبيب الفهري فرحل حظلة إلى المشرق وترك له البلاد، منعا لسفك الدماء، فالتف حوله العرب ومن بقي على إسلامه من البربر فدخل بهم القيروان سنة 129 هـ، وأعلن استقلاله عن الدولة المروانية التي أصبح أمرها منذ ذلك التاريخ في تراجع حتى انقطع سلطانها سنة 132 هـ، وكان هدف عبد الرحمان من هذا الاستقلال، منع انقسام العرب عن البربر، ولكن البربر لم يطابقوا العرب في إفريقية على ما كانوا يريدون من تأسيس حكومة إقليمية تنهض بمصلحة البلاد دون نظر إلى تفرقة بين العناصر بل كانوا يريدون تأسيس حكومة بربرية محضة لا شائبة فيها للعرب⁽²⁾ ولم تستقر الأمور لعبد الرحمان، فقد ثار عليه جماعة من أكابر العرب والبربر فخرج عليه عروة الصدي واستولى على "تونس" وأقام عمران بن عطف الأزدي بـ"تيفاش" وأعلن العصيان، وناذب ثابت الصنهاجي "بباجة"، ولكن عبد الرحمان استطاع إخماد هذه الثورات كلها، وجاءت خلافة بني العباس، فلما تولى أبو جعفر المنصور - وهو ثاني الخلفاء العباسيين - وبلغه ما حل بإفريقية من الثوار البرابرة أمر واليه على مصر محمد بن الأشعث بالتأهب لإنقاذ القيروان من أيدي المناوئين فوجه أبا الأحوص العجلي سنة 142 هـ / 759 م ولما بلغ القيروان هزمه الخوارج فرجع مفلولا، فكتب المنصور إلى ابن الأشعث بأن يسير بنفسه، فسار في أربعين ألف مقاتل، فدخل القيروان سنة 146 هـ / 763 م بعد أن قتل كثيرا من ثوار البربر ورؤسائهم وضبط إفريقية أحسن ضبط ثم عاد الثوار فقاموا عليه سنة 148 هـ، فاضطر للخروج منها، فلما بلغ المنصور ذلك عهد بولاية إفريقية إلى الأغلب بن سالم التميمي، وكان ذا رأي وشدة فاستقامت له الأحوال، وكان محسنا للجند، مقيما للعدل بين الرعية كما قام بتحسين القيروان وإحاطتها بخندق لوقايتها من الهجوم، كما رتب حرسها، وغير

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ 90/5، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة دار الكتب العلمية - بيروت ط1 - 1413 هـ / 1992 م ص294.

(2) تاريخ شمال إفريقيا : 146.

ذلك من ضروب الإصلاح وترتيب النظام ولكنه قتل في حرب مع البربر. فعهد المنصور لعمر بن حفص المهلبى - وكان بطلا سمحا - بالشخص إلى إفريقية فقدم القيروان سنة 151 هـ / 768 م، فاستقام له الأمر ثم قتل كسابقه، حينئذ وجه المنصور يزيد بن حاتم المهلبى، فصار إلى إفريقية سنة 155 هـ / 771 م في ستين ألف مقاتل لإعادة السلام إليها والقضاء على الثورات وطرد الإباضية من القيروان، وكان قد التقى في مسيره بجحافل البربر بقيادة أبي حاتم الخارجي في جبال نفوسة جنوب "طرابلس" فانهمز البربر وقتل أبو حاتم وأهل نجلته، وتيسر له دخول القيروان بعد ذلك فمهد الأمور، ورتب أسواق القيروان وأفرد لكل صناعة مكانا وجدد بناء جامع عقبة وكانت له وقائع شهيرة مع البربر حتى كف أيديهم عن الشغب والثورة وصرفهم إلى الأعمال النافعة إلى التعمير والزراعة وتنمية الثروة، كما ضبط أحوال الناس أحسن ضبط واستمر ناسجا على ذلك المنوال إلى أن توفي سنة 171 هـ / 787 م وكانت مدة ولايته خمسة عشر عاما، ولما مرض استخلف ابنه داود الذي باشر الولاية بقتال البربر الذين خرجوا عليه في جبال خمير من ناحية باجة بزعامة صالح بن نصير النفزي [نسبة إلى نفزة] في جماعة الإباضية ويعرفون بأهل البصائر⁽¹⁾ وبقي داود أميرا على إفريقية، إلى أن قدم عمه روح بن حاتم واليا عليها، وكان الرشيد حين عين روحا لولاية إفريقية شيعه - وهو يوصيه - "يا روح عليك بالزّاب، أملاه خيلا ورجلا"⁽²⁾ فدخلها أواخر عمره وأفاض فيها سجال عدله وكرمه، وفي أيامه انكسرت شوكة البربر واستكانوا للتغلب وأطاعوا الدّين، وتوفي روح سنة 174 هـ / 790 م، قال أبو إسحاق الرقيق إنّه كان بين الجند والبربر من لدن قاتلهم عمر بن حفص إلى انقضاء أمرهم ثلاثمائة وخمس وسبعون وقعة⁽³⁾ وتولى بعده نصر بن حبيب المهلبى بعهد من الرشيد، وكان حسن السيرة يؤثر العدل، ثم جاء كتاب الرشيد بعزله وولاية الفضل بن روح المهلبى [السادس من بني المهلب] ولم يستقم له أمر وقتل سنة 178 هـ / 794 م وانتهت بموته ولاية المهالبة، وفي سنة 179 هـ / 795 م عهد الرشيد لهرثمة بن أعين فقدم إفريقية وأمن الناس وسكنهم وبنى "القصر الكبير"

(1) تاريخ شمال إفريقيا : 186.

(2) تاريخ إفريقية والمغرب : 136.

(3) تاريخ إفريقية و المغرب : 110.

بالمنستير" وسور مدينة "طرابلس"، ثم كاتب الرشيد يسأله الاستعفاء من إفريقية لما رأى من الاختلاف بها وسوء طاعة أهلها فأعفاه، ثم رجع إلى المشرق لسننتين ونصف من خلافته، ثم بعث الرشيد لإفريقية عـوضه محمد بن مقاتل العكي سنة إحدى وثمانين ومائة للهجرة أميرا للمغرب ويذكر المؤرخون عنه أنه كان سيئ السيرة، ضعيف الرأي مما أدى إلى اضطراب الأمور واختلاف الجند عليه وقد ارتكب أمرا فاحشا بضربه البهلول بن راشد عابد زمانه - ظلما وعدوانا - وحَبَسَه له مما تسبب عنه موت البهلول، كما اقتطع من أرزاق الجند وأساء معاملتهم، ومعاملة الرعية، حتى قام الناس عليه وشقوا عصا الطاعة، فلما بلغ الرشيد سوء تصرفه، عزله وولى إبراهيم بن الأغلب إفريقية سنة 184 هـ / 800 م، وبولاية ابن الأغلب تبدأ صفحة جديدة من حياة القيروان وازدهارها والحاصل أن أهم ما يميز هذه المرحلة الثانية - هو كثرة الولاة و عزل بعضهم عند إسناد الخلافة إلى خليفة جديد مما أدى إلى عدم الاستقرار، يضاف إلى ذلك كثرة الثورات التي قام بها الخوارج المعارضون للولاة أو الزعماء الثائرون من العرب وقد تمكن بعضهم أحيانا من فرض سلطته على القيروان، وكان الهدف من هذه الثورات - في الغالب- الاستقلال عن مركز الخلافة ورغبة البربر في تسيير أمورهم بأنفسهم، وفي المقابل كان حرص الخلفاء والحكام على قمع هذه الانتفاضات ومنع الانفصال لأن التساهل في ذلك يضعف دور السلطة المركزية ويفتت وحدة الأمة الإسلامية، ويذهب بهيبة سلطان الخلافة، أما العلماء في القيروان فلم يكونوا يرغبون في استقلال البربر، لأن مظاهر العقيدة الصحيحة لم تنجل - عندهم - بعد، ولم يرقوا إلى فهم ديني عميق لافتقارهم إلى ملكة اللسان العربي، ولذلك فإن السيادة العربية في الحكم والتسيير ضرورية لنشر الإسلام ولتلقين العلوم الدينية باللغة العربية، ولذلك حرص علماء الإسلام في العصور الأولى على تبليغ المعارف اللسانية، متزامنة مع المعارف الدينية، وفي المقابل لم يكونوا راضين عن الأساليب السياسية التي يتوخاها الولاة العرب في الحكم والإدارة لأنها لم تكن مبنية على روح الإسلام وتعاليمه السمحة، وتميزت في فترات كبيرة بالعنصرية والاستبداد بالرأي واحتقار الآخر، مما عرض العلماء إلى الاضطهاد والتضييق، وفي مجال آخر قام الأئمة من التابعين ومن بعدهم بنشر الفكر الإسلامي الصحيح، الفكر السني السامح الخالي من التتبع والمغالاة،

وتصدوا لمعتقدات الخوارج تسفيها لها، وتضليلا لمذاهبها حتى لا ينبر بها المعارضون أو الساخطون على الولاة، وسنوا للناس منهاجاً سياسياً سليماً يتمثل في النقد والاعتراض والتقويم من دون الخروج عن صف الجماعة، وإشهار السيف وسفك الدماء والتسارع إلى الفتنة، في هذه المرحلة بالذات لم تكن بإفريقية والمغرب مدينة تستطيع أن تقوم بهذا الدور المبرز غير القيروان، تبلغ العقيدة الصحيحة، عقيدة السنة والجماعة، وتحميها من غلواء التطرف، وتوهن من العصبيّة العربية التي حملها بعض الولاة والقادة من بني أمية وتحقق التوازن الاجتماعي بين مختلف مكونات الأمة الإسلامية، بضبط العلاقة بينها جميعاً على أساس من الأخوة الدينية والتكافل الاجتماعي والمساواة في الحقوق والواجبات، وشيئاً فشيئاً - بفعل تلك الجهود المضنية التي قام بها الدعاة والمخلصون - بدأ قتل الثورة يخفت، ومظاهر الردة والخروج تضعف، حتى اختفت تماماً مذاهب الخوارج وحلت بإفريقية رؤية إسلامية صحيحة على طريقة أهل المدينة، قراءة وفقها وعقيدة، وبدأت في أواخر هذه المرحلة الثانية الرحلة الجادة من إفريقية إلى المدينة، أو بالأحرى إلى إمامها مالك بن أنس الذي أخبر عنه النبي(ص) أنه يوشك أن تضرب، إليه أكباد الإبل، ووافق هذا نشوء مرحلة سياسية جديدة في وراثّة الولاية واستقلالها شيئاً فشيئاً عن ملك بني العباس.

المرحلة الثالثة : العهد الأغلبي [من 184 هـ / 800 م إلى 296 هـ /

908م] باشر إبراهيم أمر إفريقية واشتغل بها. وكان فقيهاً، حافظاً للقرآن عارفاً به. سمع الليث بن سعد بمصر. ولم يل إفريقية أحسن سيرة منه ولا أحسن سياسة ولا أرف برعيته ولا أوفى بعهد منه⁽¹⁾ وهي صفات نادرة قل أن تتوفر إلا في أكابر الرجال من مؤسسي الدول وكان أستاذه الليث بن سعد يقول عنه أيام تحصيله : " ليكونَ لهذا الفتى شأن ". فكان كما قال حسنة من حسنات الدهر في توطيد مملكة إفريقية وإزالة ما نقشى فيها من ذرائع الخلاف بين البربر والعرب⁽²⁾ وقد حاول إبراهيم بذل كل جهده في استقرار الأمن ونشر السكينة والرقي بالبلاد إلا أن ذلك لم يمنع من قيام ثورات ضده تمكن من

(1) ابن عذاري، البيان المغرب : 1 / 92.

(2) الثعالبي، تاريخ شمال إفريقيا 204.

القضاء عليها كما بنى مدينة قريبة من القيروان لتكون مقرا له سماها "العباسية"، ونقل إليها العتاد والرجال⁽¹⁾ وذكر الرقيق القيرواني أنّ إبراهيم قبض على رؤساء الجند الذين كانوا يتوثبون على الأمراء وبعث بهم إلى المشرق لأنّ كلّ رئيس فرقة من الجند كان يرى أنّه أحقّ بالأمر من الوالي الذي يسند إليه الخليفة الأمر، كما ذكر أن عدم سداد الوالي لأرزاق الجند كان من أسباب قيام الجند بالثورات، والانضمام إلى المتمردين، وكان أحد المتوثبين وهو عمران بن مجادة الربيعي العامري قد أرسل إلى الإمام أسد بن الفرات صاحب "الأسدية" ليخرج معه لقتال إبراهيم بن الأغلب فامتنع فأعاد إليه الرسول و قال له : تخرج معنا وإلا أرسلنا إليك من يجزّرك، فقال أسد للرسول : قل له والله إن خرجت لأقولنّ للناس إن القاتل والمقتول منكما في النار فكف عنه⁽²⁾. وهذا من سياسة العلماء في قطع الفتنة ورفض الخروج على الحكام، وقد عهد إبراهيم قبل وفاته إلى ابنه عبد الملك بتولي الإمارة من بعده حيث أدركته الوفاة سنة 196 هـ / 811 م، وكان إبراهيم قبل ذلك قد كاتب الرشيد في أن تصير ولاية إفريقية وراثية في عقبه، فأجابه الرشيد إلى ذلك على أن يؤدي كل سنة خراجا إلى دار الخلافة قدر بأربعين ألف دينار⁽³⁾ فكان الخلفاء قد أدركوا أن الولاة لا يستقيم أمرهم ولا تهدأ الثورات من حولهم إلا إذا كانت الولاية متوارثة كما هو الحال في الخلافة، ولذلك لم يمانعوا في توريث الولاية في بني الأغلب حينما أراد ذلك إبراهيم، وقد كان لهذا الإسناد أثر في التغيير السياسي الذي طرأ على هذه الولاية وفي تمتع القيروان بشبه استقلال أعطاهها الحرية في التصرف ممّا أدى إلى استقرار الأمن ومكنها بعد ذلك من استئناف نشاط الفتوح وتوسيع نطاق سلطة القيروان⁽⁴⁾ ثم بويج لابنه أبي العباس عبد الله بن إبراهيم وكان سيئ السيرة ولم تطل مدة ولايته فتوفى سنة 201 هـ / 816 م بعد أن مكث في الحكم خمسة أعوام وبضعة أشهر ثم بويج لأخيه زيادة الله بن إبراهيم، وكان أميرا جليلا فصيحاً، من أعظم أمراء الدولة الأغلبية شبه حاله في إفريقية بحال عبد الملك بن مروان في المشرق في

(1) زيتون محمد، القيروان و دورها في الحضارة الإسلامية : 122.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ : 6 / 108.

(3) تاريخ إفريقية والمغرب : 222، ابن خلدون، العبر : 4 / 196.

(4) زيتون، محمد، القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية : 122.

كثرة الخارجين عليه ونزوعهم إلى العيث بأمن الدولة ومصابرته لهم حتى فاز عليهم وظفر بهم جميعا وفتح الفتوحات العظيمة في جنوب إيطاليا وكسر أساطيل الروم وأقر المسلمين في ذلك الصقع وهو الذي شيد جامع القيروان وبني سور سوسة ووجه له المأمون بعهد الولاية سنة 203 هـ / 818 م، وكان عطوفا على أهل القيروان فكان يعين عليهم أفضل رجاله، من ذلك انتدابه للإمام أسد بن الفرات لولاية القضاء على القيروان سنة 204 هـ / 819 م لما له من المنزلة العالية في الدين والعلم وكان زيادة الله في منابذته للمتمردين يرسل إليهم الشيوخ والقضاة يحذرونهم عواقب الخلاف ويأمرونهم بالطاعة، وقد اتسعت في عهده ممتلكات المسلمين في أرض جزيرة "صقلية" وكذلك في "سردينية" وأصبحت هذه المناطق تابعة للقيروان. وكانت وفاته سنة 223 هـ / 837 م بعد أن مكث في الحكم اثنين وعشرين سنة⁽¹⁾ ثم خلفه على حكم إفريقية أخوه الأغلب بن إبراهيم الذي قام بإصلاحات أهمها تحسين حالة الجيش والرعية، واهتم بإزالة المظالم كما عمل على تحريم الخمر والنبذ من القيروان وعاقب على بيعه وشربه، كما تابع إرسال السرايا والجيوش إلى صقلية، وبذلك كانت أيامه ذات استقرار داخلي وفتح خارجي وتوفي الأغلب سنة 226 هـ / 840 م،⁽²⁾ ثم تولى إمارة إفريقية محمد بن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب وكان أميرا موقفا محظوظا استعان على تدبير مملكته بالبصرياء من أولى الرأي والحزم، فصلحت الأمور واستقامت الأحوال فقد عهد إلى الإمام سحنون بولاية الأحكام والقضاء وأطلق يده في الحكم على أهل بيت الأمير ووزرائه وبطانته، وتنفيذ الحق فيمن أحب أو كره منهم، وكان سحنون قد اشترط ذلك على الأمير فقبل منه ذلك بعد أن حلف عليها بالأيمان المغلظة واستمرت ولاية سحنون من سنة 233 هـ / 837 م إلى وفاته سنة 240 هـ / 854 م لم يتناول أجرا على هذه الولاية وإنما تولاهما احتسابا لله⁽³⁾ غزا محمد بن الأغلب جزر المتوسط، وكانت له انتصارات باهرة، كما بنى مدينة قرب تاهرت [بالمغرب الأوسط] سماها العباسية، وجعلها عاصمة لحدوده الغربية،

(1) ابن الأثير، الكامل : 6 / 136 - 137.

(2) زيتون، القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية : 125.

(3) الثعالبي : تاريخ شمال إفريقية : 231.

ولكن هذه المدينة لم يرق وجودها في أعين الخوارج والإباضية فقدم إليها أفلح بن عبد الوارث بن رستم الخارجي فأحرقها وكانت ولاية محمد بن الأغلب خمس عشرة سنة وبضعة أشهر [من 226 هـ / 840 م إلى 242 هـ / 856 م] ثم جلس على عرش الإمارة ابنه أحمد وكان — على صغر سنه — نبيلاً محمود السيرة موقراً للعلماء رؤوفا بالضعفاء والمساكين غزا جزيرة "كريت" وفتحها وجعلها تحت حكم القيروان، وكان شغوفا بتشييد المباني والمعالم فحفر الموائل وبنى المساجد والقناطر، ويذكر ابن الأثير أنه بنى بإفريقية عشرة آلاف حصن بالحجارة والكلس وأبواب الحديد⁽¹⁾ وخصص أموالاً كثيرة لذلك ومن عجيب ما شيد خزان المياه، المعروف بفسقية الأغالبة بالقيروان وهو صهريج متناه في الكبر مستدير الشكل بديع التنسيق يكون ذخراً لأهل المدينة أيام الجفاف ومن مآثره أيضاً بناء جامع عقبة بعد أن قوضه من الأساس عدا المحراب فإنه أبى أن يمسه لمكانة واضعه عقبة بن نافع الفهري ومن مآثره الزيادة في بناء جامع الزيتونة بتونس وبناء سور سوسة ودار إمارتها وقصر لمطه وسور صفاقس ومن تدابيرہ السياسية تشريك أمراء البيت المالك في المناصب العالية وتدريبهم على أساليب الحكم بعد أن كانوا مقصورين على المناصب العسكرية والإدارية وكانت ولايته سبع سنين وعشرة أشهر ونصف، [من سنة 242 هـ / 856 م إلى 249 هـ / 863 م] وهي من أبهج أيام إفريقية وأجملها بذكریات الجود والمآثر⁽²⁾ ثم جلس على العرش أخوه زيادة الله الثاني، وقد سار على سنة سلفه في الرأفة والجود والحكم ولم تطل أيامه في الملك، إلا سنة واحدة فتوفي سنة 250 هـ / 864 م، ثم جلس على العرش ابن أخيه أبو الغرانيق محمد بن أحمد، لقب بذلك لأنه بنى قصراً لصيد الغرانيق أنفق على بنائه 30 000 ديناراً، كان شغوفا بالفتح غزا إيطاليا مرتين سنة 252 و253 كما استولى على جزيرة "مالطة" وضمها لإفريقية، وكان سكانها عرباً من بقايا الفينيقيين كما اقتطع عدة جهات من إيطاليا الجنوبية سنة 258 هـ بقيادة ابنه الحسن كما سيطر على "سركوزة" واستمر أبو الغرانيق في يقظته وهمته في الغزو وإعداد المعدات وتجهيز الجيوش وبناء المحارس والحصون على سواحل مملكته

(1) ابن الأثير : الكامل : 213/6.

(2) تاريخ شمال إفريقيا : 237 — 238.

الواسعة في إفريقية وإيطاليا إلى أن وافاه الأجل سنة 261 هـ / 874 م بعد أن حكم البلاد عشر سنين وخمسة أشهر ونصف⁽¹⁾ ثم تولى الإمارة أخوه إبراهيم بن أحمد— برغبة من أهل القيروان رغم أن أبا الغرانيق أوصى بالحكم لابنه أبي عقاب وأخذ على أخيه العهد بعدم منازعته، ولكن أهل القيروان ومشايخها وأهل الرأي من سكانها، كان لهم رأي آخر إذ مالوا لإبراهيم لما كان له من الرشاد والصلاح للقيام بشؤون الإمارة، وكان إبراهيم قد ابتدأ سنة 263 هـ / 876 م ببناء مدينة رقاده وفي السنة التالية كمل بناء القصر المعروف "بالفتح" وانتقل إليه كما تابع فتح إيطاليا 264 هـ / 877 م، تم الاستيلاء على سركوزة وكان العباس بن أحمد بن طولون ولد صاحب مصر قد حاول الاستيلاء على إفريقية سنة 267 هـ / 880 م ولكنه لم يتمكن من أن يحقق شيئاً. ويذكر المؤرخون أن إبراهيم بعد فترة من حكمه تغيرت أحواله في سياسة الدولة وصار مغرماً بسفك دماء أقاربه وأصحابه وخدمه وكذلك الرعية مما جعل القلوب تميل عنه وكان ذلك مما أضعف الدولة، ومن الأسباب المساعدة للدعوة الفاطمية التي ظهرت بعد ذلك في بلاد "كتامة" على هدم ملك بني الأغلب⁽²⁾ وكان لهذه المجازر البشرية التي اقترفها إبراهيم بن أحمد أثرها في اندلاع الثورة في أنحاء كثيرة من بلاد إفريقية في تونس والجزيرة [الوطن القبلي] وباجة وقمودة ولكنه استطاع قمع هذه الثورات واستمر حكمه إلى سنة 289هـ بعد أن اضطر إلى التخلي عن الملك إيثارا لسلامة الدولة فاستدعى ابنه أبا العباس وسلمه زمام الملك وكان إبراهيم الذي استمر ملكه 28 سنة وبضعة أشهر في بداية عهده على استقامة وحسن سياسة مع الرعية ثم أخذ ينتقل سنة فسنة من سيء إلى أسوء، حتى قتل أبناءه وإخوته صبراً، وأتى في المملكة أحداثاً لم يأت بها ظالم قبله فلما شعر بمقت الناس له ترك إفريقية وانتقل إلى إيطاليا واتخذ له قصراً بها فاحتجب فيه إلى أن أدركته منيته سنة 290هـ، عن عمر ناهز 52 سنة. ولما جلس أبو العباس بن إبراهيم على العرش. كانت البلاد على وشك الانهيار وهي تستعر بالكوارث والفتن، والدعوة إلى الباطنية قائمة على قدم وساق، والناس كارهون لحكم بني الأغلب فأراد أبو العباس تدارك

(1) ابن عذاري، البيان المغرب : 150/1 — 153.

(2) القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية. ص 130.

الأمر بإظهار النسك والتكشف ومجالسة العلماء ومشاورتهم في مهام الأمور ولكن مدته لم تطل فقد قتل بعض فتيانه غيلة بإيعاز من ابنه زيادة الله الثالث سنة 290 هـ الذي لم يسلك سياسة حكيمة يحفظ بها الدولة من الضياع وإنما تابع القتل في أعمامه وإخوته واستمر في ملذاته، وكان أبو عبد الله الشيعي القائم بالدعوة الفاطمية يزداد خطرته ويعلو شأنه حتى سقطت مدن إفريقية الواحدة بعد الأخرى فسقطت مدينة "طبنة" ثم "باغاية" ثم "قسطيلية" وفي سنة 296 هـ / 908 م تمكن عبد الله الشيعي من هزيمة إبراهيم بن أبي أغلب الذي كان يقود عساكر إفريقية في "الأربس" ودخلها عنوة فلما علم بذلك زيادة الله الثالث جمع ما خف حمله وغلا ثمنه وخرج من رقادة متوجها إلى مصر وقد حاول إبراهيم بن الأغلب الذي هزم بالأربس أن يستعين بأهل القيروان لمنازلة أبي عبد الله الشيعي إلا أن أهل القيروان لم يوافقوا على ذلك فلحق بزيادة الله وبذلك انتهت دولة الأغالبة من إفريقية بعد حكم دام 112 سنة⁽¹⁾ وقد كان المغرب الإسلامي في عهد الأغالبة قد وضع نفسه في إطار سني بعد فترة أولى من الإرهاصات، تمخضت عن ترسيخ الثقافة السنية بشقيها الحنفي والمالكي⁽²⁾ وكان أصحاب أبي حنيفة في عمومهم أشد اتصالا بالسلطة السياسية في حين كان أصحاب مالك أكثر اندماجا في الأوساط الشعبية، وانتهى أمر التنافس بين الأحناف والمالكية إلى تفرد المالكية بالساحة الثقافية والسياسية أيضا ولم يتسلل المذهب الحنفي فيما بعد من جديد إلى إفريقية إلا في أيام الترك⁽³⁾ فأهل إفريقية (تونس) عرفوا في البداية تعددية ثم قاموا تدريجيا بعملية اصطفاء مذهبي أدت في نهاية الأمر إلى ترسيخ المذهب المالكي الذي صار من أبرز مكونات هويتهم الدينية والثقافية، بل إن هذا المذهب ازدهر عوده حتى صار انتشاره فيما بعد بإفريقية وبلاد المغرب عامة يفوق انتشاره في مهده الأصلي وفي عدة أمصار مشرقية⁽⁴⁾ وقد كان لسحنون الدور العظيم في توجيه الناس لاختيار

(1) القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية ص : 131.

(2) سعد غراب، العامل الديني والهوية التونسية، سلسلة موافقات الدار التونسية للنشر ط 1 - 1990 ص : 38.

(3) الطالباني، محمد، دراسات في تاريخ إفريقية ص : 162.

(4) الشنوي محمد، تاريخ المذاهب الفقهية بإفريقية، المركز القومي للبيداغوجي ط 1 تونس - 1419 هـ / 1998 م، ص : 8.

الرؤية المالكية وكان شيوخه من أهل إفريقية قد التقوا بمالك وأخذوا عنه نهجه الفقهي، ثم ارتحل طائفة منهم إلى العراق فالتقوا بأصحاب أبي حنيفة، فاختلقت تبعاً لذلك مشاربهم الفكرية، فعلي بن زياد وابن أشرس وصقلاب بن زياد الهمداني والبهلول بن راشد كانوا ملتزمين بفقته ملك راغبين عن فقه العراقيين، وكانوا من أسهموا في تغليب مذهب مالك بإفريقية بعد أن كان مذهب الكوفيين غالباً عليها وأما أسد بن الفرات وابن فروخ وابن غانم فكانوا يعتمدون على مالك ولكنهم يميلون إلى طريقة أهل النظر والاستدلال. وكان سحنون من أنبه شباب القيروان في ذلك الوقت، تعلم الفقه على طريقة مالك عن علي بن زياد التونسي، وأخذ عنه الموطأ، وسمع كذلك البهلول بن راشد وابن غانم وابن أشرس فلما أقبل أسد بن الفرات "بمدونته" أدرك سحنون قيمة الإنجاز الذي قام به صاحبها إذ أن إفريقية لم تكن قد استوعبت ما صدر عن مالك من أقوال بعد عودة مشايخها الذين سمعوه وعانين عن قرب اعتراضات مشايخ المالكية على أسد في طريقته لتدريس الفقه بمزجه بين منهج العراقيين وعلم مالك، مع ما فيها من اختلاط في الأقوال، ولم يعجبهم ما فيها من ظنون ابن القاسم حين تخونه ذاكرته، حتى قال له الناس: "أجئتنا بأخال، وأظن وأحسب وترك الآثار وما عليه السلف". أدرك سحنون نقاط الضعف التي لحقت "بالأسدية" فلم يرتض أن يتبنى المالكية "مدونة" -على قيمتها- غير خالصة لفقه مالك ومليئة بظنون ابن القاسم الذي أعجله أسد بن الفرات عن التثبت في سماعاتها لذلك عزم سحنون على تنقيح هذه المدونة وإعادة تنسيقها على نهج واحد يخلصها من "الشوائب العراقية" ويضبط فيها أقوال مالك التي شك فيها ابن القاسم وكان أسد أبى أن يسلم كتبه لسحنون لما طلبها منه، فتحيل سحنون حتى صارت الكتب عنده فانتسخها ورحل بها إلى ابن القاسم بمصر، فقرأ عليه الأسدية، وأسقط منها ما شك فيه من قول مالك وأجابه فيه على رأيه، وكانت رحلته سنة 188 هـ / 803 م وعاد إلى إفريقية سنة 191 هـ، محملاً بمدونته المنقحة والمصححة ومن يومئذ أصبحت المدونة عمدة المالكية في كامل المغرب الإسلامي فكثر شروحا ومختصراتها وتهذيباتها⁽¹⁾ وكان محمد بن الأغلب قد عهد إلى سحنون بولاية الأحكام والقضاء وأطلق يده في كثير من

(1) ابن رشد الجدي، المقدمات ج1، ص 28، الطالبي محمد، تراجم أغلبية ص: 59

المسؤوليات فتهياً له المناخ في التضييق على المذاهب المخالفة للسلف، وفي اصطفاء المذهب المالكي واختياره كمكون ثقافي وحيد بإفريقية وساعده في ذلك كثرة تلاميذه الذين ملؤوا الآفاق، قال ابن عجلان : "ما بورك لأحد بعد أصحاب رسول الله (ص) ما بورك لسحنون في أصحابه، إنهم بكل بلدة لأئمة"⁽¹⁾ هذا الغرس الذي زرعه سحنون جنى منه أهل إفريقية ثمرا زكيا، تمثل في دين وسُوطٍ، لا ساقط سقوطا ولا ذاهب فروطا.

(1) الثعالبي، عبد العزيز، تاريخ شمال إفريقيا ص : 231.

